من طبائع الاستبداد إلى طبائع الثورة في فكر عبد الرحمن الكواكبي

سيد حافظ عبد الحميد(*)

في ضوء ما يشهده حاضر العالم العربي من ثورات على الاستبداد، والمستبدين، وما يطمح إليه الشباب العربية من بناء الذات، والصعود إلى مصاف العالم الحر، يهدف هذا البحث إلى الكشف عن أسس الخطاب الثوري عند عبد الرحمن الكواكبي (١٨٥٥-١٩٠٢م) وعن القيم الثورية التي يجب أن يتخلق بها الثوار، في محاولة للاستفادة من هذا الخطاب؛ من أجل إكمال المسار الثوري الذي تشهده البلاد العربية؛ خاصة في ظل ما نعيشه اليوم من غياب على مستوى الوعي الثوري؛ ومن ثم تخبط واضح على مستوى الفعل الثوري، وعدم الاستمرار في التوحد حول المطالب الثورية العامة- خاصة على مستوى الحركات والأحزاب والائتلافات - والتوجه نحو المطالب الخاصة، وفي ظل غياب التأصيل لأسس ثورية واضحة ترسم الطريق، وتوضح الأهداف في المرحلة المقبلة.

كما يهدف البحث - أيضًا - إلى إبراز الخطاب الثوري في الفكر العربي الحديث، فنربط الحاضر بالماضي؛ من أجل المستقبل؛ ومن ثم فإن بحثي هذا الخطاب ليس ارتدادًا؛ من أجل القبوع في الماضي، بقدر ما هو استهداء به وربطه بالحاضر؛ من أجل التحرك نحو المستقبل.

وقد رأيت في عبد الرحمن الكواكبي خير من يمثل هذا الخطاب، كيف لا؟! وهو الذي بنى أمله في قيام الثورة على الشباب العربي المسلم الواعي، المتحرر من الجمود ومن قيود الاستبداد، وأعوانه، فهو القائل في صدر كتابه (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد): «هل

(*) مدرس مساعد بقسم الفلسفة - كلية الآداب جامعة بني سويف - ٢٠١١.

كلمة حق وصرخة في واد إن ذهبت اليوم مع الريح لقد تذهب غدًا بالأوتاد» وبعد مائة عام تقريبًا من دعوته، يخلع حكام تونس، ومصر، وليبيا، بعد أن تفجرت الثورة العربية، ثورة ليست على الاستعمار الأجنبي بل على الاستبداد، والخوف، والجهل، وثورة على الضعف الذي أصاب الذات العربية والمسلمة، فوصمت بالتأخر والهمجية، من هنا يكون عبد الرحمن الكواكبي حاضرًا معنا، وكأنه كان ينتظر ربيع الثورة العربية في القرن الحادي والعشرين. فهو واحد من ثوار القول والفعل، شغلته الثورة على الاستبداد والجمود؛ من أجل اقتلاعه من جذوره، ورام إلى بناء مجتمع جديد (مجتمع الحرية)، مضاد لمجتمع قديم (مجتمع الاستبداد)، والثورة على الذات من أجل إعادة بنائها، فكشف عن طبائع الاستبداد ومصارعه، ليبني أسس الثورة ودعائمها وقيمها، وهذا ما سأحاول أن أبينه في الصفحات التالية.

تكوين الوعي الثوري

الوعي الثوري عند الكواكبي: هو إدراك المواطن حقوقه، وواجباته، ومعرفته أن الحاكم جاء ليخدمه لا ليستخدمه، وأنه حر في الفكر والفعل ما لم يخالف القانون الاجتماعي[١]، وتيقظه للمطالبة بحقوقه، وأنه قادر على عزل الحاكم من خلال الثورة إذا حرم الشعب حقوقه، أو إذا أخل بواجباته[٢].

وتكوين الوعي الثوري عند عبد الرحمن الكواكبي هو أول الأسس، وأهمها، والذي يطرحه كبداية ضرورية للتغيير، والقضاء على الاستبداد، ووضع رؤية جديدة، وإقامة مجتمع جديد، وهو وعي لأنه بمثابة يقظة وتنبيه وإدراك لواقع الحال، وهو ثوري لأنه رفض للتأخر وأسبابه، يريد أن يخلع قديمًا ويبني جديدًا، بل هو مرحلة لا تقل أهمية عن مرحلة المقاومة والمغالبة؛ لأن المستبد يبذل طاقته في الحيلولة دون وعي الشعب؛ ولا يخفى عليه مهما كان غبيًا، أن لا استعباد ولا اعتساف مادامت الرَعِّية حمقاء تخبط في ظلامة جهل وتيه عماء[٣]

(١) عبد الرحمن الكواكبي: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تحقيق محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، ط١، ٢٠٠٧م، ص: ١٢٩.

(٢) نفس المرجع، ص: ٢٦- ٢٧.

(٣) نفس المرجع، ص: ٤٤.

فلا يعو الفرق بين (الفعال المطلق)، والحاكم بأمره، وبين (لا يُسأل عما يفعل) وغير مسؤول، وبين (المنعم) وولي النعم، وبين (جل شأنه) وجليل الشأن. بناءً على ذلك يعُظمون الجبابرة تعظيمهم لله.. وكما أنه ليس من صالح الوصي أن يَبْلغ الأيتام رشدهم كذلك ليس من غرض المستبد أن تتنور الرعية بالعلم[1]. وتتسلح بالوعي، الذي يجعل مهمة الجماهير المضطهدة الرئيسية تكمن في أن تكون مستعدة لأن تقول لا أريد الظلم.

ويرى الكواكبي أن تكوين الوعي الثوري في الرأي العام وتهيئة الشعب له يحتاج إلى وقت طويل، قد يمتد لعقود؛ حتى يستعد الشعب للثورة، وذلك لأسباب:

- قوة الحاكم الذي يواجه الشعب بالجيش، وقوة الثراء، ونفوذ رجال الدين، وسلطة التقاليد والمألوفات الجامدة، ويرى أن القضاء على الاستبداد في ظروف كهذه غير ممكن؛ إلا بعد تهيئة طويلة للرأي العام، وبث الوعي فيه؛ خاصة وأن الناس ألفوا من يخدعهم من رجال ارتبطوا بالحاكم، والاستبداد.[2].
- الوعي الثوري يأخذ وقت طويل لأنه تكوين وعي وتغيير ثقافة شعب، وهذا يحتاج إلى وقت طويل.

ولذا فإن تكوين الوعي الثوري عند الكواكبي يكون من خلال خطوتين مترتبتين ومرتبطتين ببعضهما البعض.:

- الخطوة الأولى: إيقاظ الشعور في الناس بآلام الاستبداد، لأن الشعب الذي يعاني من الألم دون أن يعيه، ليس جديرًا بالحرية. فالأمة التي تقبع تحت الذلة والمسكنة، وتتوالى عليها القرون، تصير سافلة الطباع، لا تسأل عن الحرية، ولا تلتمس العدالة، ولا تعرف للاستقلال قيمة، أو للنظام مزية، ولا ترى لها وظيفة غير اتباع الغالب عليها، وقد تقاوم المستبد، ولكن بسوق مستبد آخر، فتستبدل مرضًا بمرض، وربما تنال الحرية عفوًا، فلا تلبث الحرية أن تتحول إلى فوضى، لأن الحرية التي تنفع

(١) نفس المرجع، ص: ٤٤.

(٢) ز.ا. ليفين: الفكر الاجتماعي والسياسي الحديث في مصر والشام، ترجمة بشير السباعي، دار شرقيات للنشر والتوزيع، القاهرة، ط٢، ١٩٩٧م، ص: ١١٥

الأمة، هي الحرية التي تحصل عليها بعد الاستعداد لقبولها، أما التي تحصل عليها نتيجة ثورة حمقاء فقلما تفيد شيئًا، لأنها - غالبًا - تكتفي بقطع شجرة الاستبداد ولا تقتلع جذورها، فلا تلبث أن تنبت وتنمو وتعود أقوى مما كانت عليه[١].

لقد أراد الكواكبي إيقاظ الوعي الإنساني وعي الحرية والكرامة في نفوس العرب والمسلمين[٢]، ورأى أنه يأتي من خلال الشعور بآلام الاستبداد وهي أولى خطوات إيقاظ الفعل الثوري في الشعب، لأن الشعور بالألم سيؤدي إلى الشكوى منه، والبحث عن كيفية القضاء عليه، وهي أولى خطوات تكوين الوعي الثوري، والتي تأتي عن طريق ضرورة بث علوم الحياة مثل الحكمة النظرية، والفلسفة العقلية، وحقوق الأمم وطبائع الاجتماع، والسياسة المدنية، والتاريخ المفصّل، والخطابة الأدبية، ونحو ذلك من العلوم التي تكبر النفوس، وتوسع العقول، وتعرف الإنسان ما هي حقوقه، وكم هو مغبون فيها؟، وكيف الطلب؟ وكيف التوال؟ وكيف الحفظ..[٣]، وتأتي من خلال الحرص على ضرورة وجود الأماكن العامة مثل: الساحات، والقاعات، من أجل الاجتماعات التي تهتم بموضوعات تخصّ الشأن العام، التي جعلها الحكام من الأمور المحظورة، وجعلها وعّاظهم من الفضول والاشتغال بما لا يغني، وربما جعلوه من التجسس، والسعي بالفساد، فصار كل شخص لا يهتم إلا بما يخصه، ويحفظ حياته في يومه، فأنسوه أن له حقوقا[٤] وأن الحرية أفضل من الحياة، وأنسوه النفس وعرها، والشرف وعظمته، والحقوق وكيف تحفظ؟ والظلم وكيف يرفع؟ والإنسانية وما هي وظائفها؟ والرحمة وما هي لذاتها؟[٥]. وتأتي - أيضًا - من خلال عقد الجمعيات التعليمية والقانونية[٦].

(١) عبد الرحمن الكواكبي: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، ص: ١٣٤- ١٣٥.
(٢) عثمان أمين: رواد الوعي الإنساني في الشرق الإسلامي، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص: ١١٦.
(٣) عبد الرحمن الكواكبي: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، ص: ٤٥.
(٤) عبد الرحمن الكواكبي: أم القرى، ضمن الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي، تحقيق محمد عمارة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، ١٩٧٠، ص: ٧٧- ٧٩.
(٥) عبد الرحمن الكواكبي: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، ص: ٤٩- ٥٠.
(٦) عبد الرحمن الكواكبي: أم القرى، ص: ٢٧٥.

إن هذه الخطوة هي التي تجعل الفعل الثوري فعلاً واعيًا، وقادرًا على التفكير في البديل، وهنا تأتي الخطوة الثانية.

- الخطوة الثالثة، أنه يجب قبل مقاومة الاستبداد، تهيئة ماذا يُستبدل به الاستبداد؟: فإن معرفة الغاية شرط طبيعي للإقدام على كل عمل، كما أن معرفة الغاية لا تفيد شيئا إذا جهل الطريق الموصل إليها، والمعرفة الإجمالية في هذا الباب لا تكفي مطلقًا، بل لابد من تعيين المطلب والخطة وتعيينًا واضحًا موافقًا لرأي الكل، أو الأكثرية التي هي فوق الثلاثة أرباع العدد، وإلا فلا يتم الأمر، حيث إذا كانت الغاية مبهمة نوعًا، يكون الإقدام ناقصًا نوعًا، وإذا كانت مجهولة بالكلية عند قسم من الناس أو مخالفة لرأيهم فهؤلاء ينضمون إلى المستبد، فتكون فتنة شعواء، وإذا كانوا يبلغون مقدار الثلث فقط، تكون الغلبة حينئذ في جانب المستبد، ثم إذا كانت الغاية مبهمة ولم يكن السير في سبيل معروف، ويوشك أن يقع الخلاف أثناء الطريق، فيفسد العمل أيضًا وينقلب إلى انتقام وفتن؛ ولذلك يجب تعيين الغاية بصراحة وإخلاص وإشهارها بين الكافة، والسعي في إقناعهم واستحصال رضائهم بها ما أمكن ذلك، بل الأولى حمل العوام على النداء بها وطلبها من عند أنفسهم[١].

فالكواكبي يرى أن تدبير الثورة دون إعداد العدة لما بعدها مضيعة للجهود ومجازفة بالنتيجة المرجوة[٢]، ومن ثم فقد أكد على ضرورة تعيين الغاية، وكيفية تحقيقها، بإخلاص وصراحة، وإلا تحول الأمر إلى فتنة، تكون في صالح المستبد، وتقوي شوكته، وتحصد الناس وتفقدهم الثقة في دعاة الحرية، وهو يرى أن هذه من أهم العيوب التي يجب أن يتفادها الشرقي يقول: «الشرقي مثلا يهتم في شأن ظالمه إلى أن يزول عنه ظلمه، ثم لا يفكر فيمن يخلفه ولا يراقبه، فيقع في الظلم ثانية، فيعيد الكرة، ويعود الظلم إلى ما لا نهاية»[٣].

---

(١) عبد الرحمن الكواكبي: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، ص: ١٣٩.

(٢) عباس محمود العقاد، عبد الرحمن الكواكبي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ١٩٨٦م، ص: ١٨٧.

(٣) عبد الرحمن الكواكبي: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، ص: ٨٧.

وإذا كان خطاب الكواكبي يعتمد على العقلاء (قادة الفكر والإصلاح)[١] في تكوين الوعي الثوري، وتحديد ما يستبدل به الاستبداد حيث يقول: «أية أمة كانت، ليس لها من يحك جلدها غير ظفرها، ولا يقودها إلا العقلاء بالتنوير والإهداء والثبات، حتى إذا ما اكفهرت سماء عقول بينها قيض الله لها من جمعهم الكبير أفرادًا كبار النفوس قادة أبرار يشترون لها السعادة بشقائهم، والحياة بموتهم؛ حيث يكون الله قد جعل في ذلك لذتهم، ولمثل تلك الشهادة الشريفة خلقهم، كما خلق رجال عهد الاستبداد فساقا فجارًا مهالكهم الشهوات والمثالب[٢] (المكلفون بالتدبير هم حكماء ونجباء الأمة من السراة والعلماء[٣]. إلا أنه يعقد نجاح الخطاب الثوري بإيمان الرأي العام بالغاية من الثورة، والمطالبة بها؛ ومن ثم يحث على ضرورة إقناعهم بها، وكسب رضائهم ما أمكن، فيقول: «وهذا الاستعداد الفكري النظري لا يجوز أن يكون مقصورًا على الخواص، بل لابد من تعميمه وعلى حساب الإمكان ليكون بعيدًا عن الغايات معضودًا بقبول الرأي العام»[٤]؛ ومن ثم فالحرب دائمة - كما قال - بين مستبد، وعالم حيث قال: «يسعى العلماء في تنوير العقول، ويجتهد المستبد في إطفاء نورها، والطرفان يتجاذبان العوام. ومن هم العوام؟ هم أولئك الذين إذا جهلوا خافوا، وإذا خافوا استسلموا، كما أنهم هم الذين متى علموا قالوا، ومتى قالوا فعلوا... والحاصل أن العوام يذبحون أنفسهم بأيديهم بسبب الخوف الناشئ عن الجهل والغباوة، فإذا ارتفع الجهل وتنور العقل زال الخوف، وأصبح الناس لا ينقادون طبعًا لغير منافعهم، كما قيل: العاقل لا يخدم غير نفسه، وعند ذلك لابد للمستبد من الاعتزال أو الاعتدال»[٥].

ومن أهم الغايات التي يجب تحديدها هي تقرير شكل الحكومة التي يراد ويمكن أن يستبدل بها الاستبداد، وليس هذا بالأمر الهين الذي تكفيه فكرة ساعات، أو فطنة آحاد، وليس هو بأسهل من ترتيب المقاومة والمغالبة. وتقرير شكل الحكومة هو أعظم مشكلة

(١) ماجدة حمود: عبد الرحمن الكواكبي فارس النهضة والأدب، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠١م، ص: ٧٧- ٧٨.

(٢) عبد الرحمن الكواكبي: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، ص: ٦٣.

(٣) عبد الرحمن الكواكبي: أم القرى، ص٢٧٥.

(٤) عبد الرحمن الكواكبي: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، ص: ١٣٩.

(٥) نفس المرجع، ص: ٤٧.

وأقدمها في البشر، وهو المعترك الأكبر لأفكار الباحثين، والميدان الذي قل في البشر من لا يجول فيه[١].

ومن أجل ذلك نجد الكواكبي يطرح في كتابه طبائع الاستبداد، خمسة وعشرين مبحثًا، تتعلق كلها بتحديد الغايات وما يستبدل به الاستبداد، مثل ما هي الأمة؟ وما هي الحكومة؟ وما هي الحقوق العمومية؟ ومبحث التساوي في الحقوق، ومبحث نوعية الحكومة، ومبحث حقوق الحاكمية، ومبحث طاعة الأمة للحكومة، ومبحث المراقبة على الحكومة، ومبحث السعي في رفع الاستبداد.[٢]. هذه المباحث التي يقول الكواكبي عنها «ذكرت هذه المباحث تذكرة للكتاب ذوي الألباب وتنشيطًا للنجباء على الخوض فيها بترتيب[٣].

إن الكواكبي يعقد أمله - في بناء المجتمع الجديد، ونشر الوعي، ونجاح مرحلة تكوين الوعي - على الشباب، والشباب الذي يمتلك ناصية الوعي، أولئك الذين لا يقصرون بناء قصور الفخر على عظام نخرها الدهر، ولا يرضون أن يكونوا حلقة ساقطة بين الأسلاف والأخلاف، الذين يعلمون أنهم خلقوا أحرارًا فيأبون الذل والأسر، الذين يودون أن يموتوا كرامًا ولا يحيون لئامًا، الذين يجتهدون لنيل حياة رضية، حياة قوم كل فرد منهم سلطان مستقل في شؤونه، بار بوطنه، لا يبخل عليه بفكره ووقته وماله، يعشقون الإنسانية، ويعلمون أن البشرية هي العلم، والبهيمية هي الجهالة، وأن خير الناس أنفعهم للناس، وأن القنوط وبال الآمال، والتردد وباء الأعمال، ويفقهون أن القضاء والقدر هما السعي والعمل، ويوقنون أن كل ما على الأرض من أثر هو من عمل أمثالهم البشر[٤].

ويحذر الكواكبي أن يسري هذا الخور من الشيوخ إلى الشباب فتخور عزائمهم ويرضخون تحت الذل والمسكنة، والخمول، وسقوط الهمة، ويطلب من الشيوخ أن يتركوا الشباب الجديد وشأنهم، لا يستهزئون ولا يعطلون، ولا يسفهون ولا يثبطون، بل ويرى ضرورة أن يدافع الشباب عن نفسه، ويتصدى للأفكار القديمة المثبطة، وأصحابها،

(١) نفس المرجع، ص: ١٣٩- ١٤٠.
(٢) نفس المرجع ص: ١٢٨- ١٣٣.
(٣) نفس المرجع ص: ١٣٣.
(٤) عبد الرحمن الكواكبي: أم القرى، ص: ٢٦٨

ويرى أن خير وسيلة لتحقيق ذلك هي الجرائد والمجلات التي تخصص لذلك، وأقلام الأدباء وألسنة الشعراء، بل وبالأناشيد، والنكت المضحكة التي تنتشر بسرعة على ألسنة العامة، فتثور حرب أدبية بين الناشئة والواهنة، تنتهي بانكسار الفئة الثانية العاجزة عن كل شيء إلا التعطيل. فهكذا دائما ينتصر الفكر الناشئ على الفكر الواهن وأنصاره، بجد نجبائها لمن يراجع تاريخ الأمم، وليس من الصدفة أن يضرب الكواكبي مثلا بمارتن لوثر (١٤٨٣-١٥٤٦م) أو فولتير (١٦٩٤- ١٧٧٨م) في انتصار أفكارهم الجديدة على الأفكار القديمة التي قعدت بأوربا قرونًا عدة تحت ظلمة الجهالة[١].

إن الكواكبي أراد من خلال الوعي أن يثور على مجتمع الشيوخ الذين أصابهم الخور، والوهن، فيشق عليهم مفارقته؛ فهم منذ نعومة أظافرهم ألفوا الاحترام، فلا يدوسون الكبير ولو داس رقابهم، وألفوا الثبات، ثبات الأوتاد تحت المطارق، وألفوا الانقياد ولو إلى المهالك، ونظروا الكمال في الأجانب كما ينظر الصبيان الكمال في آبائهم، فألفوا أن تكون وظيفتهم في الحياة دون النبات، ذاك يتطاول وهم يتقاصرون[٢]. وهذا هو الذي أراده إيمانويل كانط من قبل وعنى به التنوير، وهو أن استخدام فهمي دون قيادة الغير. وهذا ما يؤكده قول الكواكبي «يا قوم: أعيذكم بالله من فساد الرأي، وضياع الحزم، وفقد الثقة بالنفس، وترك الإرادة للغير، فهل ترون أثرًا للرشد في أن يوكل الإنسان عنه وكيلا ويطلق له التصرف في ماله وأهله، والتحكم في حياته وشرفه، والتأثير على دينه وفكره، مع تسليف هذا الوكيل العفو عن كل عبث وخيانة وإسراف وإتلاف؟[٣].

إن مرحلة تكوين الوعي الثوري وتنميته، هي المرحلة الأطول والأهم في المسار الثوري، ومن ثم نجد الكواكبي يضع ضوابط من أجل إمكانية وكيفية تفعيلها، تتمثل في:

١- أن المقاومة فيها لا تكون بالشدة، إنما بالحكمة والتدريج؛ عن طريق تنوير الأفكار بالتعليم، وإيجاد شوق للترقي في رؤوس النتاشئة[٤] يقول الكواكبي: «أن الوسيلة

(١) نفس المرجع، ص: ٢٦٧- ٢٧٠.
(٢) نفس المرجع، ص: ٢٦٧.
(٣) عبد الرحمن الكواكبي: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، ص: ١٠٩.
(٤) عبد الرحمن الكواكبي: أم القرى، ص: ٢٧٥.

الوحيدة الفعالة لقطع دابر الاستبداد هي ترقي الأمة في الإدراك والإحساس، وهذا لا يتأتى إلا بالتعليم والتحميس. ثم إن اقتناع الفكر العام وإذعانه إلى غير مألوفه، لا يتأتى إلا في زمن طويل، لأن العوام مهما ترقوا في الإدراك لا يسمحون باستبدال القشعريرة بالعافية إلا بعد التروي المديد، وربما كانوا معذورين في عدم الوثوق والمسارعة؛ لأنهم ألفوا أن لا يتوقعوا من الرؤساء والدعاة إلا الغش والخداع غالبًا»[1].

إن الشدة والعنف تتنافى مع تكوين الوعي، وتغيير ثقافة العقل الجمعي، بل تغييره يحتاج إلى التثقيف، والتعليم، فالشدة والعنف في مرحلة تكوين الوعي تكون في صالح الاستبداد، وليس الشعب. ومن ثم فالكواكبي في هذه الفترة يرفض العنف أو المغالبة بسبب:

- إن الاستبداد محفوف بأنواع القوات التي فيها قوة الإرهاب بالعظمة وقوة الجند، لاسيما إذا كان الجند غريب الجنس، وقوة المال، وقوة الإلفة على القسوة، وقوة رجال الدين، قوة أهل الثروات، وقوة الأنصار من الأجانب، فهذه القوات تجعل الاستبداد كالسيف لا يقابل بعصا الفكر العام الذي هو في أول نشأته يكون أشبه بغوغاء، ومن طبع الفكر العام أنه إذا فار في سنة يغور في سنة، وإذا فار في يوم يغور في يوم.
- الاستبداد لا ينبغي أن يقاوم بالعنف؛ كي لا تكون فتنة تحصد الناس حصدًا.

ومن ثم فقد آمن الكواكبي متماشيًا مع أكثرية المثقفين والمفكرين من العرب بأن التغيير الفجائي في مرحلة تكوين الوعي لا يؤدي إلى التقدم بقدر ما هو يكون عقبة في طريق الوصول إليه، فلقد آمنوا بأن تنوير العقول وتثقيفها وتحريرها - من خلال التعليم وتنوير العقول وبث الوعي وتربية الرأي العام وليس التغيير (السطحي) من خلال الثورات الفجائية التي تقتصر على مجرد الإطاحة بالقديم الثابت، لتضع مكانه ثابتًا أخر - هي أفضل السبل للانتقال من حالة التأخر إلى حالة التقدم. وهذا ما أكد عليه الفيلسوف الألماني كانط (١٧٢٤- ١٨٠٤م) الذي رأى أنه لا يمكن لجمهور أن يبلغ التنوير إلا بتأن. فالثورة قد تطيح بالاستبداد الشخصي والاضطهاد المتعطش إلى المصلحة المادية أو السلطة، ولكن لا يمكن أن تؤدي أبدًا إلى إصلاح حقيقي لنمط التفكير، بل فقط إلى

(١) عبد الرحمن الكواكبي: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، ص: ١٣٧.

استخدام أحكام مسبقة جديدة، مثلما كانت تستخدم القديمة، كشريط موجه للأغلبية التي لا تفكر[١].

إن الكواكبي يتحدث دائما عن المقاومة، ولكنها المقاومة الواعية، فهو لا يريد المخاطرة بحياة الشعب، فنيل مجد النبالة كما يقول: «ينحصر تحصيله في زمن الاستبداد بمقاومة الظلم على حسب الإمكان»[٢].

٢- التنظيم والتقية؛ من أجل إلهاء الحاكم عن ما يبثه العقلاء من الوعي في الناس وإشغال المستبد بأمور أخرى يقول: «لمثيري الخواطر على الاستبداد طرائق شتى يسلكونها بالسر، والبطء، يستقرون تحت ستار الدين، فيستنبتون غابة الثورة من بذرة أو بذور يسقونها بدموعهم في الخلوات. وكم يلهون المستبد بسوقه إلى الاشتغال بالفسوق والشهوات، وكم يغرونه برضاء الأمة عنه، ويجسرونه على مزيد التشديد، وكم يحملونه على إساءة التدبير، ويكتمونه الرشد، وكم يشوشون فكره بإرباكه مع جيرانه وأقرانه. يفعلون ذلك وأمثاله لأجل غاية واحدة وهي إبعاده عن الانتباه إلى سد الطريق التي فيها يسلكون»[٣].

وهذا التنظيم والتقية يكون في البداية، أما الأمر حينما يضمن تأييد الرأي العام يكون ترتيب المقاومة والمغالبة، يقول: «والأولى أن يبقى ذلك تحت مخض العقول سنين، بل عشرات السنين حتى ينضج تمامًا، وحتى يحصل ظهور التلهف الحقيقي على نوال الحرية في الطبقات العليا، والتمني في الطبقات السفلى، والحذر كل الحذر من أن يشعر المستبد بالخطر، فيأخذ بالتحذر الشديد والتنكيل بالمجاهدين، فيكثر الضجيج، فيزيغ المستبد ويتكالب، فحينئذ إما أن تغتنم الفرصة دولة أخرى فتستولي على البلاد، وتجدد الأسر على العباد بقليل من التعب، فتدخل الأمة في دور آخر من الرق المنحوس، وهذا نصيب أكثر الأمم الشرقية في القرون الأخيرة، وإما أن يساعد الحظ على عدم وجود طامع أجنبي، وتكون الأمة قد تأهلت للقيام بأن تحكم نفسها بنفسها، وفي هذه الحال يمكن لعقلاء الأمة أن يكلفوا المستبد

(١) إيمانويل كانط: إجابة عن سؤال ما هو التنوير، ترجمة إسماعيل المصدق، الشبكة الليبرالية السعودية الحرة. humanf. Org. 8686/vb/ showthread. Php?t= 2044 http://www

(٢) عبد الرحمن الكواكبي: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، ص: ٥٣.

(٣) نفس المرجع، ص: ١٣٨- ١٣٩.

ذاته لترك أصول الاستبداد، وإتباع القانون الأساسي الذي تطلبه الأمة - والمستبد الخائر القوى لا يسعه عند ذلك إلا الإجابة طوعًا، وهذا أفضل ما يصادف - وإن أصر المستبد على القوة، قضوا بالزوال على دولته، وأصبح كل منهم راعيًا، وكل منهم مسؤولا عن رعيته، وأضحوا آمنين، لا يطمع فيهم طامع، ولا يغلبون عن قلة، كما هو شأن كل الأمم التي تحيا حياة كاملة حقيقية[1].

إن الكواكبي لا يريد المقاومة بالشدة في حالة الضعف وقوة المستبد، وإلا باءت المحاولة بالفشل وإن نجحت المحاولة تكون فورة تفور في عام وتغور في عام، أما الثورة فمستمرة، تقضي على الاستبداد من جذوره. إنه يريد أن يهيئ الأمة أولا فإذا ما أصبحت قوية قضت على المستبد والاستبداد، يقول: «فإذا وجد في الأمة الميتة من تدفعه شهامته للأخذ بيدها والنهوض بها فعليه أولا: أن يبث فيها الحياة وهي العلم؛ أي علمها بأن حالتها سيئة، وإنما بالإمكان تبديلها بخير منها، فإذا هي علمت بطبعه من الآحاد إلى العشرات، إلى إلى...، حتى يشمل أكثر الأمة، وينتهي بالتحمس ويبلغ بلسان حالها إلى منزلة قول الحكيم المعري:

إذا لم تقم بالعدل فينا حكومة *** سلطان سلطان سلطان سلطان سلطان سلطان

فنحن على تغييرها قدراء

وهكذا ينقذف فكر الأمة في واد ظاهر الحكمة يسير كالسيل، لا يرجع حتى يبلغ منتهاه». عندها تحدث الثورة، فيموج الناس في الشوارع والساحات، وتملأ أصواتهم الفضاء، وترتفع فتبلغ عنان السماء، ينادون: الحق الحق، الانتصار للحق، الموت أو بلوغ الحق[2].

وعندئذ ينصح الكواكبي العقلاء أن يكونوا بعيدين يحافظون على أرواحهم، حتى يكون على موعد مع بناء المجتمع الجديد، كما يرى أن الأفضل في هذه المرحلة أن يتولى الأمور رجال ممن ليس لهم صلة بالاستبداد. «فإذا كان في الأمة عقلاء يتباعدون عنها ابتداءً، حتى إذا سكنت ثورتها نوعا وقضت وظيفتها في حصد المنافقين، حينئذٍ يستعملون الحكمة في

(١) نفس المرجع، ص: ١٤٠.

(٢) نفس المرجع، ص: ١٣٥.

توجيه الأفكار نحو تأسيس العدالة، وخير ما تؤسس يكون بإقامة حكومة لا عهد لرجالها بالاستبداد»[١].

وبذلك فإن تكوين الوعي الثوري هو الأساس الأهم في الخطاب الثوري، وفي مسار الفعل الثوري الصحيح عند عبد الرحمن الكواكبي، فإن لمستوى الوعي الثوري، ومدى عمقه، الأثر الحاسم، في تحديد مصائر الحركات الثورية، وإذا ما لاحظنا الواقع في الثورات العربية، الراهنة، فنجد أن التطور الذي حدث على مستوى التواصل المعرفي عبر التليفزيون والانترنت، وغيرها من الأدوات، أدى إلى تكوين نوع من الوعي الثوري لدى الشباب العربي، قائم على رفض لما يعيشه من واقع، والذي أساسه السؤال الجديد فبدلا من لماذا نحن في تأخر؟ الذي كان سؤال الكواكبي وأبناء القرن التاسع عشر، أصبح السؤال لماذا يفرض علينا أن نتأخر؟. غير أنه كان وعيًا مبتورًا خاليًا من الترتيب والتنظيم، فاقدًا للعقل المنظم، فوقعنا في الخطأ الذي نبه إليه الكواكبي، حيث شغلنا إزاحة الظلم دون تهيئة ما يستبدل به، فأصبح البديل غير موجود، الأمر الذي يجعل الثورة في خطر إذا ما تبنينا خطاب الكواكبي.

فإذا ما أردنا أن نقيم ثورات الربيع العربي، وخاصة الثورة المصرية، من خلال خطاب الكواكبي، نجد أن المؤسسة الوطنية، أو العقل المدبر والمفكر - وهو ما أكد عليه الكواكبي متمثلا في الجمعيات، والعقلاء -[٢] كان غائبا في هذه الثورات، الأمر الذي يمكننا أن نقول معه أن هذه الثورات كان سببها جهل المستبدين لا تدبير المدبرين؛ ومن ثم فإن غياب العمل التنظيمي سواء على مستوى تكوين الوعي الثوري، أو على مستوى الحالة الثورية، هو أحد أسباب المعاناة التي نعيشها اليوم، وهذا الأمر يرجع في اعتقادي إلى اليأس من الإصلاح، فقد أكد المجددون والمستنيرون من رجالات القرن التاسع عشر على أن اليأس من قدرة العقل العربي على الإصلاح، والتقدم، هو أشد المعوقات خطرًا على نهضة أي أمة[٣] - وهذا ما نبه إليه الكواكبي قائلًا: «إذا وجد في الأمة الميتة من تدفعه شهامته للأخذ بيدها والنهوض بها فعليه أولاً: أن يبث فيها الحياة وهي العلم؛ أي علمها بأن حالتها سيئة،

(١) نفس المرجع، ص: ١٣٧.

(٢) عبد الرحمن الكواكبي: أم القرى، ص: ١٤١.

(٣) سيد حافظ عبد الحميد: فكرة التقدم في الفكر العربي الحديث في القرن التاسع عشر، رسالة ماجستير، كلية الآداب جامعة بني سويف، ٢٠١٠م، ص: ١٣١.

وإنما بالإمكان تبديلها بخير منها»[١]: «الراغب في نهضة قومه، عليه أن يهيئ نفسه ويزن استعداده، ثم يعزم متوكلا على الله في خلق النجاح -[٢]. كما نبه إليه من قبل بطرس البستاني (١٨١٩- ١٨٨٣م)[٣] ومحمد عبده (١٨٤٩م- ١٩٠٥م)[٤]، ومريم حداد (؟)[٥] - والتحول من حماسة الشباب إلى استسلام الكهولة، فخفت الخطاب الثوري عند حسن حنفي، فمن العقيدة إلى الثورة، إلى حصار الزمن، من الخطاب العام، إلى المشروع الخاص، وخرج علينا باعتذار لشعب مصر بعد أن أسأنا به، نحن المثقفين، الظنون... وطالما طالت المدة، وانسد الأفق، وطال النفق ودب اليأس في القلوب. وظننا أننا نعبر عن حالة موجودة بالفعل عند الشعب وهي عندنا نحن»[٦] فلم يكن متوقعا هذا العمل الثوري، بعد أن تحول الحماس إلى الاستسلام، حتى على مستوى التيارات الدينية مثل الإخوان، فلم يستطع أي تيار أن ينسب إلى نفسه عملا تنظيميًا لهذه الثورة، لأن كل التيارات وصلت إلى حالة الاستسلام أيضًا.

إن الخطاب العام الذي أراده الكواكبي، ورأى أن الشباب دعامته، تحول إلى خطاب خاص على مستوى الأفراد، والتيارات، فانتهى الأفراد إلى عمل المشروعات الفكرية الخاصة بهم، وانتهت التيارات على تنوعها إلى انتزاع ما يحفظ وجودها الخاص قدر المستطاع حتى لو بالاتفاق مع الاستبداد على حساب الشعب. أما الكواكبي فقد كانت ثقته وأمله في الإنسان العربي باعث إلى دعوة ثورية، يكون الفعل الثوري فيها فعلا واعيًا، له هدف، وخطة يتحقق من خلالها.

وإذا كان ما سبق طرحه هو خطوات تكوين الوعي الثوري، حتى تقوم الثورة الواعية، فما الذي يضمن الحفاظ على الثورة، وتحقيق أهدافها؟

---

(١) عبد الرحمن الكواكبي: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، ص: ١٣٥.

(٢) نفس المرجع، ص: ١٣٧.

(٣) بطرس البستاني: آداب العرب، ضمن كتاب مجالي الغرر لكتاب القرن التاسع عشر، هـ ١، تجميع يوسف صفير، المطبعة العثمانية، بعبدا- لبنان، ط٢، ١٩٠٦م، ص: ٢٨.

(٤) محمد عبده: الأعمال الكاملة، تحقيق وتقديم محمد عمارة، دار الشروق القاهرة، جـ٣، ط١، ١٩٩٣م، ص: ٣٤٤- ٢٤٧.

(٥) سيد حافظ عبد الحميد: فكرة التقدم في الفكر العربي الحديث، ص: ١٣٢.

(٦) حسن حنفي: عذرا شعب مصر:
http://www.hekmah.org/portal/%D8%B9%D8%B0%D8%B1%D8%A7-%D8%B4%D8%B9% D8% A8-,%D9% 85% D8% B5% D8% B1

استمرارية الحالة الثورية

استمرارية الحالة الثورية، هي الأساس الثاني في الخطاب الثوري عند عبد الرحمن الكواكبي، والذي يتجسد به الوعي تحركًا ثوريًا، هو الذي يحافظ على مكتسبات الثورة، ويقف على تحقيق أهدافها، والحفاظ عليها، فالصمود إلى آخر الشوط باستمرارية ثورية تحول دون التقهقر أو الانهيار، هو أمر أهم من الثورة نفسها وكما قيل من السهل أن تكون ثوريًا ولكن من الصعب أن تستمر ثائرًا، فلطالما خذلت ثورات، كان فيها من الصدق في الاندفاع والتأجج، ما استرخصت معه جميع التضحيات مهما غلت، ولطالما انهار ثوريون، كان لهم من الإيمان المستبسل والدفاع العارم، ما وقفوا بها أصلب المواقف، قبل أن تخبوا في عروقهم جذوة الإيمان الثوري[١].

إن استمرارية الحالة الثورية عند الكواكبي هي التي تضمن نجاح الفكر الجديد في مرحلة تكوين الوعي الثوري كما يقول: «يلزم لمقاومة تلك القوات الهائلة مقابلتها بما يفعله الثبات والعناد المصحوبان بالحزم والإقدام»[٢]. وتضمن نجاح الثورة وبقائها في مرحلة ما بعد الثورة نفسها، وتمنع نمو الاستبداد يقول: «والرعية العاقلة تقيد وحش الاستبداد بزمام تستميت دون بقائه في يدها؛ لتأمن من بطشه، فإن شمخ هرت به الرمام وإن صال ربطته»[٣].

واستمرارية الحالة الثورية تزاد كلما عمق الوعي وتنامى، وتتضاءل وتخبو، كلما هبط الوعي وانحدر، فمن العوامل الرئيسية التي أدت ببعض الثوريين إلى فقدان استمراريتهم الثورية، هو سطحية الوعي؛ ومن هنا نجد أن الكواكبي يغرس في الشعب أن الصلاح يكون بيده لا بيد حاكم ينتظره، يقول: «المستبدون يتولاهم مستبد، والأحرار يتولاهم الأحرار»[٤]. فالشعب الحر لابد أن يكون متيقظًا للحاكم مهما أبدى من صلاح؛ لأنه يمكن أن ينقلب إلى مستبد إذا ما رأى الشعب غافلا، يقول: « كما استلفت نظرهم إلى أنه

(١) فؤاد الركابي، على طريق الثورة، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، د. ت، ص: ٩.
(٢) عبد الرحمن الكواكبي: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، ص: ١٣٧.
(٣) نفس المرجع، ص: ٢٧.
(٤) نفس المرجع، ص: ٢٨.

لا يوثق بوعد من يتولى السلطة أيا كان، ولا بعهده ويمينه على مراعاة الدين، والتقوى، والحق، والشرف، والعدالة، ومقتضيات المصلحة العامة، وأمثال ذلك من القضايا الكلية المبهمة التي تدور على لسان كل بر وفاجر. وما هي في الحقيقة إلا كلام مبهم فارغ؛ لأن المجرم لا يعدم تأويلاً؛ ولأن من طبيعة القوة الاعتساف؛ ولأن القوة لا تقابل إلا بالقوة»[١]. «إن الحكومة من أي نوع كانت لا تخرج عن وصف الاستبداد؛ ما لم تكن تحت المراقبة الشديدة والاحتساب الذي لا تسامح فيه[٢].

ويصل الكواكبي إلى ذلك من خلال رؤيته التي يقول أنه استقرئها من التاريخ ومن تحليله لطبيعة الحاكم والحكم، فيقول: «من الأمور المقررة طبيعة وتاريخًا أنه؛ ما من حكومة عادلة تأمن المسئولية والمؤاخذة بسبب غفلة الأمة أو التمكن من إغفالها إلا وتسارع إلى التلبس بصفة الاستبداد، وبعد أن تتمكن فيه لا تتركه»[٣].

ومن ثم راح الكواكبي يؤكد على أهمية استمرارية الحالة الثورية متجسدة في سيف المراقبة والمحاسبة، الذي هو حق الأمة التي تعرف أنها صاحبة الشأن كله، وتعرف أن تراقب، وأن تتقاضى الحساب[٤]. مؤكدًا أن الأمة التي تريد أن تخطو نحو التقدم هي التي تكون يقظة ساهرة على مراقبة سير حكومتها، لا تغفل طرفة عين، كما أن الله عز وجل لا يغفل عما يفعل الظالمون[٥]، فالكواكبي يضرب هذا المثل، ليؤكد أن مراقبة الشعب حكومته هي التي تضمن المحافظة على أهداف الثورة، بل ويدعم مثله بأساس من الدين، والتاريخ الإسلامي في عهد الخلفاء، قائلاً: «الإهمال للمراقبة، هو إهمال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد أوسع لأمراء الإسلام مجال الاستبداد وتجاوز الحدود. وبهذا وذاك ظهر حكم حديث: «لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليستعملن الله عليكم شراركم فليسومونكم سوء العذاب»، وإذا تتبعنا سيرة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما مع الأمة، نجد أنهما مع كونهما مفطورين خير فطرة، ونائلين التربية النبوية، لم تترك الأمة معهما المراقبة

(١) نفس المرجع،، ص: ١٢٧.
(٢) نفس المرجع، ص: ٢٤.
(٣) نفس المرجع، ص: ٢٥.
(٤) نفس المرجع، ص: ٢٤.
(٥) نفس المرجع، ص: ١٢٥.

والمحاسبة، ولم تطعهما طاعة عمياء»[١] فالحاكم الذي يرى يقظة أمته ووعيها لا يستطيع أن يستبد؛ ومن ثم كان من الضروري أن تعي الأمة ذلك وأن لا تترك نفسها في يد الحاكم حتى تقي نفسها من شر الاستبداد، يقول الكواكبي: «المستبد يتجاوز الحد ما لم ير حاجزًا من حديد، فلو رأى الظالم على جنب المظلوم سيفا لما أقدم على الظلم، كما يقال: الاستعداد للحرب يمنع الحرب. المستبد إنسان مستعد بالطبع للشر وبالإلجاء للخير، فعلى الرعية أن تعرف ما هو الخير وما هو الشر فتلجئ حاكمها للخير رغم طبعه، وقد يكفي للإلجاء مجرد الطلب إذا علم الحاكم أن وراء القول فعلا. ومن المعلوم أن مجرد الاستعداد للفعل فعل يكفي شر الاستبداد»[٢]. وبالطبع فإن الكواكبي يقصد بالخير والشر في هذا النص، خير الشعب ومن يسرقه، ومصالحه ومن يعطلها، وحقوقه ومن يتعد عليها.

إن الحالة الثورية لابد أن تكون حالة دائمة، حتى يتحول النظام القديم الذي فقد مقومات وجوده والمجتمع القديم إلى المجتمع الجديد القائم على العلاقات الجديدة، اجتماعيًا وسياسيًا واقتصاديًا، تكون فيه الأمة واعية، قوية، يقول الكواكبي: «على الرعية أن تكون كالخيل إن خدمت خدمت، وإن ضربت شرست، وأن تكون كالصقور لا تلاعب ولا يستأثر عليها بالصيد كله، خلافًا للكلاب التي لا فرق عندها أطعمت أو حرمت حتى من العظام»[٣]. ويقول: «الأمة الواعية هي التي لا يُسكر أبناءنا انتصار، ولا يخملهم انكسار، فلا يغفلون لحظة عن مراقبة ملوكهم»[٤].

وهكذا فإن استمرارية الحالة الثورية تعمق المبادئ والقيم الثورية في الرأي العام، وتمحو ما رسخ من عادات الاستبداد، تبث الحرية، وتزيل الظلم، تمقت الجهل والجمود، وتدعو إلى العلم والتجديد، وتقوي الإرادة وتمحو الضعف، وتعلي من قيمة الموت في سبيل الكرامة الإنسانية، هذه القيم هي التي أراد الكواكبي أن يؤكدها ويعمقها، وينفي ضدها قائلا: «ما أليق بالأسير في أرض أن يتحول عنها إلى حيث يملك حريته، فإن الكلب الطليق

(١) نفس المرجع، ص: ٣٩.
(٢) نفس المرجع، ص: ٢٦- ٢٧.
(٣) نفس المرجع، ص: ٠٠- ٢٧.
(٤) نفس المرجع، ص: ٢٨.

خير حياة من الأسد المربوط»[١]. العلم قبسة من نور الله، وقد خلق الله النور كشافًا مبصرًا، يولد في النفوس حرارة وفي الرؤوس شهامة، العلم نور والظلم ظلام، ومن طبيعة النور تبديد الظلام، والمتأمل في حالة كل رئيس ومرؤوس يرى كل سلطة الرئاسة تقوى وتضعف بنسبة نقصان علم المرؤوس وزيادته[٢]. وهكذا إذا زاد علم أفراد الرعية بأن المستبد امرؤ عاجز مثلهم، زال خوفهم منه وتقاضوه حقوقهم[٣]. والحاصل: أنه ما انتشر نور العلم في أمة قط إلا وتكسرت فيها قيود الأسر، وساء مصير المستبدين من رؤساء سياسة أو رؤساء دين[٤]. «يا قوم: سامحكم الله، لا تظلموا الأقدار، وخافوا غيرة المنعم الجبار. ألم يخلقكم أكفاء أحرار طلقاء لا يثقلكم غير النور والنسيم، فأبيتم إلا أن تحملوا على عواتقكم ظلم الضعفاء وقهر الأقوياء؟! لو شاء كبيركم أن يحمل صغيركم كرة الأرض لحنى له ظهره، ولو شاء أن يركبه لطأطأ له رأسه. ماذا استفدتم من هذا الخضوع والخشوع لغير الله؟ وماذا ترجون من تقبيل الأذيال والأعتاب وخفض الصوت ونكس الرأس؟ أليس منشأ هذا الصغار كله هو ضعف ثقتكم بأنفسكم، كأنكم عاجزون عن تحصيل ما تقوم به الحياة[٥]. «يا قوم: أعيذكم بالله من فساد الرأي، وضياع الحزم، وفقد الثقة بالنفس، وترك الإرادة للغير، فهل ترون أثرًا للرشد في أن يوكل الإنسان عنه وكيلا ويطلق له التصرف في ماله وأهله، والتحكم في حياته وشرفه والتأثير على دينه وفكره، مع تسليف هذا الوكيل العفو عن كل عبث وخيانة وإسراف وإتلاف؟[٦]. «يا قوم: أبعد الله عنكم المصائب وبصركم بالعواقب. إن كانت المظالم غُلّت أيديكم، وضيقت أنفسكم، حتى صغرت نفوسكم، وهانت عليكم هذه الحياة وأصبحت لا تساوي عندكم الجهد والجد وأمسيتم لا تبالون أتعيشون أم تموتون، فهلا أخبرتموني لماذا تحكمون فيكم الظالمين حتى في الموت؟ أليس لكم من الخيار أن تموتوا كما تشاؤون، لا كما يشاء الظالمون؟ هل سلب الاستبداد

(١) نفس المرجع، ص: ٢٨.
(٢) نفس المرجع، ص: ٤٤.
(٣) نفس المرجع، ص: ٤٨.
(٤) نفس المرجع، ص: ٥٠.
(٥) نفس المرجع، ص: ١١٠- ١١١.
(٦) نفس المرجع، ص: ١٠٩.

إرادتكم حتى في الموت؟ كلا والله: إن أنا أحببت الموت أموت كما أحب، لئيما أو كريما، حتفًا أو شهيدًا، فإن كان الموت ولابد، فلماذا الجبانة؟ وإن أردت الموت، فليكن اليوم قبل الغد، ولكن بيدي لا بيد عمرو. أليس:

وطعم الموت في أمر صغير كطعم الموت في أمر عظيم

«يا قوم: أناشدكم الله، ألا أقول حقًا إذا قلت إنكم لا تحبون الموت، بل تنفرون منه، ولكنكم تجهلون الطريق فتهربون من الموت إلى الموت، ولو اهتديتم إلى السبيل لعلمتم أن الهرب من الموت موت، وطلب الموت حياة، ولعرفتم أن الخوف من التعب تعب، والإقدام على التعب راحة، ولفطنتم إلى أن الحرية هي شجرة الخلد، وسقياها قطرات من الدم الأحمر المسفوح، والأسارة هي شجرة الزقوم، وسقياها أنهر من الدم الأبيض؛ أي الدموع، ولو كبرت نفوسكم لتفاخرتم بتزيين صدوركم بورد الجروح لا بوسامات الظالمين؟!»[1].

وبناء على ما سبق فإن الحالة الثورية عند الكواكبي هي مرحلة متدرجة تبدأ منذ بداية تكوين الوعي الثوري، وتظهر بوضوح في مرحلة المغالبة، وتستمر في مرحلة ما بين قيام الثورة نفسها، وحتى تستقر الأمور، ويضمن الثوار، تحقيق المطالب، المشروعة والتي أهمها، القضاء على جسد الاستبداد، والتحول من قيم الاستبداد إلى قيم الثورة، واستمرارية الحالة الثورية عند الكواكبي لا تنتهي عند مرحلة معينة بل هي لابد أن تكون مستمرة راسخة في كيان أفراد الشعب، وهي تكون كذلك كلما كانت مرحلة تكوين الوعي أعمق، فبمقدار الوعي تستمر الحالة الثورية وتنطلق الثورة في مسارها الصحيح نحو تحقيق أهدافها، وهذا هو ما عبر عنه الكواكبي بتلهف الرأي العام التابع إلى الحرية[2].

وإذا ما نظرنا إلى الواقع الذي نعيشه اليوم- ونحن من المفترض أن نكون في حالة ثورية- نجد أن غياب فلسفة واضحة لثوراتنا الحالية، أمر قد ينعطف باستمرارية الحالة الثورية من تيقظ لتحقيق الأهداف الرئيسية- من تحول ديمقراطي، ووضع دستور يجعل الأمة مصدر السلطات، ويجعل الحاكم خادمًا للشعب، ويكفل الحقوق والحريات- إلى مطالبات فئوية،

(١) نفس المرجع، ص: ١١٢.
(٢) نفس المرجع، ص: ١٤٠.

وصراعات حزبية، يعلو فيها الحزب على الأمة، والحاضر على المستقبل، كما يعلو الانتماء إلى الجماعة على الانتماء إلى الشعب، فتعلو الأنانية الفردية على المصلحة العامة، فتخفت أهداف الثورة وتبرز أهداف الأحزاب والجماعات، وهذا تحد خطير تواجهه الثورات العربية عامة، والثورة المصرية على وجه الخصوص، وهو تشتت وتفرق يفضيان بالرأي العام إلى التفتيت، وإذا تفتت الرأي العام تحللت الحالة الثورية واندثرت الثورة؛ ومن ثم يجب على أصحاب الفكر، وأهل الرأي ألا يتركوا الأمر، ويتركوا جذوة الإيمان الثوري تخبو في عروقهم، وأن يقوموا بدورهم، دعاة للوعي وقادة للإصلاح، فيفهمونا أن الثورية عمل نضالي دؤب في شتى مناحي الحياة، ويعمقوا الوعي الثوري في الأوساط الشعبية ودمجها في التيار الثوري حتى يصبح قوة كفيلة بحماية الثورة والحفاظ عليها.

إن الخوف كل الخوف من أن يدب اليأس في قادة الوعي مرة أخرى، بسبب ما نعانيه من قلة وعي، هم أنفسهم سبب فيه بيأسهم، فيتسع الخرق على الراقع، وحينئذ لا نلوم التاريخ حين يهملنا، ولا التقدم حين يتركنا، ولا الحضارة حين تخرجنا من دائرتها وترمي بنا في دائرة الهجمية.

تلك كانت محاولتي في الكشف عن أسس الخطاب الثوري عند عبد الرحمن الكواكبي، وقد توصلت من خلالها إلى:

- أن عبد الرحمن الكواكبي كان صاحب خطاب ثوري، يقوم على أساسين أولهما: نضج الوعي الثوري، وثانيهما: استمرارية الحالة الثورية، ومن ثم فإني اختلف مع نوربيرتا بييرو[١]، ومنير مشابك موسى، اللذين رأيا أن الكواكبي رفض الثورة سبيلا للتخلص من الاستبداد[٢] وأتفق مع محمد عمارة في أن الكواكبي كان داعية ثورة مدروسة واعية[٣]، وأتفق كذلك مع عباس محمود العقاد، الذي رأى أن الكواكبي

(١) نوربيرتا بييرو: الكواكبي المفكر الثائر، ترجمة على سلامة، منشورات دار الآداب، بيروت، ط٢، ١٩٨١، ص: ١٦٤.

(٢) منير مشابك موسى: الفكر العربي في العصر الحديث (سوريا من القرن الثامن عشر حتى العام ١٩١٨)، دار الحقيقة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٣م، ص: ١٧٣.

(٣) محمد عمارة، عبد الرحمن الكواكبي شهيد الحرية ومجدد الإسلام، دار الشروق، القاهرة، ط٢، ١٩٨٨م، ص: ١٧٠.

كان صاحب خطة ثورية لقلب نظام الحكم المطلق في البلاد العربية[١] والسيد يوسف الذي رأى أن ما كتبه عبد الرحمن الكواكبي كان تأصيلا لأسس الثورة وجذورها الفكرية[٢].

- لقد كشفت لنا أسس الخطاب الثوري عند عبد الرحمن الكواكبي أنه كان على دراية باللحظة التاريخية التي يطرح فيها خطابه، كما كان على وعي بواقع أمته، وبمن يوجه لهم الخطاب، وأنه آمن بالثورة أمر أساسي لبناء مجتمع قائم على الحرية والمساواة.
- إن نجاح الخطاب الثوري في رأي الكواكبي مرهون بقبول الرأي العام وتأييده، والذي عليه يكون السباق بين الاستبداد، وقادة الإصلاح.
- لقد كان خطاب الكواكبي متفائلاً واثقًا في قدرة الإنسان العربي على الإطاحة بالاستبداد - الذي أعاقه عن السير نحو التقدم، والمشاركة الحضارية الفاعلة - شريطة أن يتسلح بالوعي الثوري الكافي، وألا تخبو فيه جذوة الإيمان الثوري، وأن يناضل ويصر على تحقيق القيم الثورية وعلى رأسها قيمة الحرية.

وفي البداية يجب أن نتساءل والتساؤل أصل التفلسف: من أين نبدأ؟

فهل يسقطنا هذا التساؤل في ثنائيات لا سبيل إلى التوفيق بينها؟. محافظون جهلة وعلمانيون كفرة؟ مسلمون ومسيحيون؟ دولة دينية أم دولة مدنية؟، أم يكون بداية دورة حضارية جديدة يكون لنا دور فاعل فيها، كما قال سليمان البستاني، وعبد الرحمن الكواكبي، وحسن حنفي؟

---

(١) عباس محمود العقاد: عبد الرحمن الكواكبي، ص: ١٨٥.

(٢) السيد يوسف: عبد الرحمن الكواكبي رائد القومية العربية، وشهيد الحرية الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص: ٢٠٥.